

تعليق

كتاب النفس و الروح للامام فخرالدين الرازى

IMAM RAZI'S ILM AL-AKHLAQ*

تعليق : للدكتور عمر النص

امران اثنان اثارتهما في ذهني قراءة هذا الكتاب . اولهما ضخامة تراثنا العظيم من المؤلفات الاسلاميه التي ما تزال تحتاج الى دراسته الباحثين و عنايه المحققين ، و ثانيهما ضالته الجهد الذي يبذله علماء المسلمين لتعريف القارئ الاجنبي بهذا التراث ، و العمل على نقله الى اللغات الاخرى ، حتى يتاح للترجمه ان تصبح تيارا مزدوجا ياخذ و يمنع ، لا ان تكون قاصره على الاخذ دون العطاء .

و انا لا اجهل الصعوبات التي يمكن ان تقف في طريق تحقيق مثل هذا العمل . فنقل نص من لغة الى لغة لا يفترض معرفه عميقه باللغتين فحسب ، بل يفترض ايضا تمكنا من المادة التي ينقلها المترجم ، و اطلاعا مدركا على الموضوع المنقول ، و احساسا خاصا بالفروق المعنويه و اللغويه التي توجد في لغتي النقل .

و الاشكاليه على الاخطاه التي يقع فيها المترجمون كثيرة لا تحصى ، و لعل طائفة من تلك الاخطاه جاءت عن غير قصد ، و لعل طائفة اخرى لم تأت علم الاخلاق للامام الرازى او كتاب النفس و الروح و شرح قواهما نقله الى الانجليزية الدكتور محمد صغير حسن معصومي و طبع في اسلام اباد الباكستان ، بعناية معهد البحوث الاسلاميه .

الالغابات غير علمية- قصد بها الى الاملاء الى التراث الاسلامي و التشكيك فيه .

و لكن هذا الكتاب الجليل الذي قام بترجمته الدكتور محمد صغيرحسن معصومي يقوم دليلا ناصعا على التوفيق النادر في هذا المضمار ، و يقدم لنا نموذجا فريدا في صحة- التحقيق ، و امانه- النقل ، و سلامه- النقص ، والدقة- المدهشة في أداء المعاني الفلسفية- التي يزخر بها الكتاب . و الامام الرازي - صاحب الكتاب - علم من اعلام الثقافة الاسلامية ، و ولد في الري سنة ٤٠٣ هـ للهجرة و مات سنة ٤٦٠ هـ للهجرة ، كان مفكرا موسوعيا ، لم تقف ثقافته عند الامور الدينية- يدرسها و يدرسها ، بل كان فيلسوفا ، مؤرخا ، رياضيا ، فلکيا ، طبيبا ، فقيها ، مفسرا ، اتقن اللغتين العربية ، و الفارسية و كتب فيهما ، و تتلمذ على مؤلفات زكريا الرازي ، و الفارابي و ابن سينا ، و الامام الغزالي ، كما اطلع على ما نقل الى العربية من آثار الاسم الاخرى .

و قد بلغ الرازي في حياته مكانه- لم يبلغها الا افراد قلائل في تاريخ الفكر الاسلامي ، فكان له انصار و مريدون ينتمون الى فئات شتى من ملوك و حكام و قضاة و صوفيين . و لقد لقيت كتبه في زمنها اهتماما كبيرا لبلاغتها و قوة حجتها ، و اسلوبها الواضح السهل ، حتى باتت مراجع ذائعة- تقرا في اكبر مراكز الثقافة الاسلامية- في ذلك الحين ، من خوارزم و خراسان و الري الى دمشق .

و قد اثارت هذه المكانة- التي كان يتمتع بها الرازي حصد الحاسدين و نغمه- الناقمين ، و خاصة- اصحاب الفرق الباطنية- التي كان ينتقد معتقداتها و

يسفه أقوالها . و قد لقي الرازي من تلك الفئات عننا شديدا حتى اضطر الى ترك مرو و الخروج الى خراسان خوفا على حياته منها . و يقال أيضا انه مات مقتولا بعد ان دس له السم من قبل احدى تلك الفرق .

و قد صنف الرازي عددا ضخما من المؤلفات ، عددها ابن أبي أصيبعة- فجماعت في ستة- و ثمانين كتابا . كما ان ناشر كتاب اعتقادات فرق المسلمين و المشركين قد اوصلها الى ما يقرب من ثلاثة- و تسعين كتابا بين كبير و صغير .

و ثم تقتصر كتب الرازي على موضوع واحد فقط ، بل كتب في الفلسفة- و علم الكلام ، و المنطق ، و الفقه ، و اصول الفقه ، فجعل هذه العلوم قريبا- من الافهام ، غير مستعصية- على العامة- ، و ذلك من خلال عرض عقلي سهل ، يدل على استيعاب الرازي للعادة الفكرية- التي يكتب فيها ، و قدرته على شرحها شرحا منطقيًا واضحا .

كما أن للرازي كتابا في تفسير القرآن الكريم سماه التفسير الكبير ، جمع فيه الى التفسير طائفة- ضخمة- من المعارف و العلوم التي كان يفتتها ، حتى قال فيه قاضي القضاة أبو الحسن علي السبكي " انما فيه مع التفسير كل شيء " .

على ان دراسته- كتب الرازي تدلنا على أن العلوم الاخلاقية- كانت تشغل ذهنه بصورة خاصة- . و لذا نراه يركز في كتابه التفسير الكبير على هذه الناحية- حيث يقول : " أقول العلوم اما نظرية- و اما عملية- ، اما العلوم النظرية- فاشرفها و اكملها معرفة- ذات الله و صفاته و افعاله و احكامه و اسمائه ، و لا ترى هذه العلوم اكمل و لا اشرف مما تجده في هذا الكتاب

و اما العلوم العملية فالملطوب منها اما اعمال الجوارح و اما اعمال القلوب ، و هو المسمى بظهاره الاخلاق و تزكيت النفس ، ولا تجد هذين العملين مثل ما تجده في هذا الكتاب . ثم قد جرت سنة الله تعالى ان الباحث عنه المتمسك به يحصل له عز الدنيا و سعادة الآخرة ،،

فلا غرابه اذن أن ينصرف الاسام الرازي الى تلك العلوم الاخلاقيه فيضع فيها مؤلفا خاصا بها ، هو كتاب النفس و الروح و شرح قواهما الذي نقله الدكتور معصومي الى اللغة الانجليزية عن مخطوطه وحيدة في مكتبة جامعه اكسفورد ، بعد أن قام بتحقيقها و نشرها في لغتها الاصلية . و قد اختلف المؤرخون في اسم الكتاب ، فقد ورد في كتاب "كشف الظنون عن اساس الكتب و الفنون" ، لمصطفى بن عبد الله كاتب جليلي المشهور بحاجي خليفه (وصف الاسام فخر الدين محمد بن عمر الرازي كتابا في النفس و الروح) . في حين نجد بقيه المترجمين لحياة الرازي يوردون اسمين لكتابين منفصلين احدهما كتاب الاخلاق ، و ثانيهما كتاب النفس .

و لعل فاتحه النص الموجود بين ايدينا و الذي يبدأ بـ " هذا كتاب في الاخلاق ،، يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الكتاب هو كتاب الاخلاق الذي ذكره المؤرخون ، على أن محتويات القسم الاول منه تسوغ لنا اطلاق الاسم الذي ورد ذكره في كتاب حاجي خليفه على الكتاب بأكمله .

و الكتاب موضوع في قسمين يتناول اولها المبادئ العامه للاخلاق فيتحدث عن النفس و الروح و خلقهما و قواهما ويورد الحجج عليها ، و يتناول ثانيهما الاهواء التي تعرض للانسان كحب الثروة و الطمع و الرياء فيشرح اسواها و

يدل على الطرق الكفيلة بالخلاص منها .

وعلى رغم تمثل الرازي للثقافة الاغريقية و اعمال فلاسفتها فان المنطلقات الفكرية الاسلامية تظل غالبه على شرحه للنظريات الخلقية التي يوردها . و لذا نراه يرجع الى الايات القرآنيه و احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، و يعتمدها في تفسير المشكلات الاخلاقيه التي يبحثها و تقديمه للحلول لها . على ان الكتاب يظل مدينا - كما يقول الدكتور معصومي للمؤلفين المسلمين الذين سبقوا الرازي الى الكتابيه في هذا الموضوع كالامام الراغب الاصفهاني ، و ابي البركات البغدادي ، و الامام الغزالي و خاصه في كتابه " احياء علوم الدين " .

و فصول الكتاب مذيله كلها بتعليقات تدل على ثقافه مستفيضه و اطلاع واسع عميق ، فقد رجع فيها الاستاذ المترجم الى اكثر من ستين مؤلفا ، فقارن بين فكرة و فكرة ، ووازن بين كلمه و كلمه ، حتى غدت تلك التعليقات جزءا من الكتاب لا تكمل قراءته الا بها .

و الدكتور المترجم دقيق في انتقاه الالفاظ ، عالم بأسرارها ، فهو لا يقف عند ايجاد مقابل لكل كلمه ، بل يدرس السياق الذي جاءت فيه فيختار اقرب اندادها اليها ، و يناقشها ، فلا يجزم بصحتها الا بعد اختبارها ، ثم يثبتها في التعليقات أيضا و ياتي بشواهد عليها من مؤلفات الرازي و غيره من المؤلفين .

ان هذا الكتاب مآثره جليله للدكتور معصومي تضاف الى مآثره الجمه في

خدمته الثقافية الإسلامية ، وحبذا لو أتيح لنخائر الفكر الإسلامي الأخرى ما أتيح لهذا الكتاب من عناية فائقة في النقل ، وفهم واع للنصوص و ادراك سليم لمراميتها ، حتى يصبح في مستطاع القارئ الأجنبي ان يطلع على تلك الذخائر و يضعها موضعها الصحيح في تاريخ الفكر الانساني الشاسل .

الدكتور عمر النص

(مع الشكر لمجلة "مجمع اللغة العربية" بدمشق) .

